سر الحياة

تأليف : ريتشارد جرانيت

ترجمة : صبحى الجيار

كان الفيلسوف العجوز « أبونيل » يعيش فى قلعة عالية فى مدينة « يالخ » ، حيث كرس نفسه لدراسة الكيمياء والعلوم الغامضة .. ولم يكن يدعو احدا الى معمله . ولا يعنى هذا انه كان يتجنب الآدميين تماما ، بل على العكس، فقد كان له سبعة تلاميذ من الشبان الذين ينتمون الى انبل العائلات فى المدينة ، كان يزودهم — فى اوقات معينة — بالفلسفة وكل المعلومات القانونية المشروعة ، محتفظا لنفسه بالعلوم والحكمة غير المباحة ، وهى التى تتعلق بالسحر والكيمياء الخرافية التى تبحث فى تحويل المعادن الى ذهب .

وذات يوم استدعى تلاميذه السبعة الى صومعته السرية فدلفوا اليها فى

رهبة وفضول . لكنهم لم يلحظوا شيئا، بل راوا استاذهم الحكيم واقفا خلف منضدة ، كان فوقها سبع قارورات بللورية ، مملوءة بسائل صاف شفاف كالماء .

وبدا الحكيم يتكلم :

ـ أنتم تعلمون يا ابنائى كم اكافح واجاهد بحماس لاكتشف اسرار الطبيعة الغامضة ، وكى احل المعضلات التى اغرت وحيرت العلماء على مر العصور. لقد كانت هذه المسألة هى هدفى دائما. ولكنى ـ حتى امس ـ لم يكن حظى بأفضل من هؤلاء الذين سبقونى . ان القدر الضئيل الذى أمكننى انجازه يبدو تافها اذا قورن بالقدر الذى اضطررت الى تركه غير كامل . وحتى الآن يعتبر نجاحى نسبيا ، فانا لم أستطع ان اعرف كيف أصنع الذهب ، وليست لى حكمة سليمان ، ولا استطيع ان اعيد جوهر الحياة الى الموتى ، ولا انفث الحياة فى الجماد . ولكنى اذا لم اكن اقدر أن اخلق الحياة فان فى استطاعتى ان أحافظ عليها وابقيها ، فقد اكتشفت اكسير الحياة .

صمت الحكيم لحظة ليختبر ملامح تلاميذه ، فألفاها مكتسية بدهشة بالغة، من أمل وايمان لاشك فيه بصحة ما قاله أستاذهم . وقد اشرقت عيونهم بوميض من أمل خجول فى انهم قد يشاركونه فى هذا الاكتشاف العظيم الذى صارحهم به . وعندما أدرك الحكيم مشاعرهم هذه ، استطرد يقول :

ـ انى ارغب فى اطلاعكم على هذا السر اذا شئتم ..

فانطلقت منهم صيحة جماعية ، أكدت له أن لا داعى لتشككه فى رغبتهم. وعاد يقول :

ـ ولكن تذكروا .. أن هذه المعلومات ـ كأى معلومات اخرى ـ لها مضارها وعواقبها .. ان لكل شيء ثمن .. وعندما اتيتم هنا لتتلقوا هذا العلم فمن المحتمل انه تبدى لكم جم الصعوبة .. وأود ان تفهموا انالشروط التى سأعرضها عليكم ليست من عندى . ان هذا السر اقد اتى الى عن طريق الأرواح .. ولم اصل اليه عن طريق المنحة .. بل حصلت على هذا السر تحت شروط حاسمة اضطررت ان امتثل اليها . واحب ان تفهموا أيضا أنه لا يعنينى أن استخدم هذه المعلومات لمصلحتى الخاصة .. فان السنوات الثمانين التى قطعتها من عمرى قد جعلتنى اكثر حرصا والتماسا لهذه الوسائل التى تختصر الحياة أكثر مما تطيلها . وقد يكون من المفيد لكم اذا استطاعت خبرة السنوات العشرين من عمركم أن تؤدى بكم الى نفس النتيجة.

لم يبد اى اعتراض على احد من الشبان ، بل اسرعوا بالموافقة فى حماس، مدفوعين بما يكتنف حياتهم من فراغ وغرور ، وتذمر . وكذلك من اجل مبادىء معلمهم المبجل ، الذى كان راضيا عن تصرفاتهم وطباعهم ، الا انه كان محتاجا لمن يقنعه بالهوة السحيقة بين النظرية وتطبيقها ، وبضعف الاقتناع العقلى بجانب الغريزة الفطرية .

وفى صوت واحد ابدوا جميعا استعدادهم لتحمل اى مخاطرة معقولة،

وتطوعوا لاجراء اية تجربة ، راضين بهذاالشرط الذى يؤهلهم للاشتراك فى السر العظيم الذى اكتشفه استاذهم .

وعاد الحكيم يقول :

ـ وهو كذلك .. والآن انصتوا الىالشروط .. على كل منكم ان يختار احدى هذه القوارير السبعة بطريقةعفوية .. ثم يتجرعها فى الحال . ان واحدة منها فقط تحوى اكسير الحياة .. اما القوارير الاخرى فتختلف محتوياتها تماما عن قارورة الأكسير .. انها تحوى ستة انواع من السم المميت .. وهى اقوى سموم استطاعتمهارتى ان تمكننى من تحضيرها .. ولم يعرف العلم حتى الآن ترياقا لهذهالسموم . فالنوع الأول يلسع الأحشاء كجمرة من نار . والثانى يقتل ضحيتهبتجميد جميع أوعيتها الدموية .. ويشل كل اعصابها .. والسم الثالثيقضى على الانسان بانتفاضات مجنونة مهلكة .. أما الرابع فان من يتجرعهسيكون أسعد حالا نسبيا .. لانه سيسقط على الأرض فى الحال فاقدالحياة .. كأن البرق قد صعقه .. لكنى لا اشفق كثيرا على الخامس الذى سيقعفى غيبوبة على الفور .. ثم يقضى نحبه فى غفوة خالية من الألم . ولكن ما اتعسالذى سيختار القارورة السادسة فان شعره سيسقط عن راسه .. وينفصل جلده عن جسده .. ويظل طويلا على قيد الحياة يعانى من عذاب مبرح .. يتمنى معه الموت . اما القارورة السابعة .. فهى التى تحوى هدفكم المنشود ..

ثم صاح فيهم :

ـ مدوا ايديكم نحو المائدة فى آن واحد .. وليقبض كل منكم على احدى القوارير دون تردد .. ثم يتجرعها فى جراة وشجاعة .. ودعوا القدر يختار لكم ، وسوف تحدد النتيجة قدر ما لكل منكم من حظ ..

تشاور التلاميذ السبعة معا ، والذهول مخيم على وجوههم ، ثم اتجهوا جميعا شاخصين نحو أستاذهم ، آملين ان يكتشفوا شيئا من علامات المزاح على ملامحه الوقورة ، ولكنهم لم يروا على محياه غير مهابة رزينة ،

أو ربما كان يومض من خلفهـــا تعبير صارم ساخر .

واخيرا راحوا يمعنون النظـــر فى القوارير ، آملين ان يلمحـوا فيها اى اختلاف ضئيل قد يساعدهم فى تمييز الاكسير عن السموم ، ولكن خاب ظنهم ، فقد كانت القوارير متشابهة تماما فى مظهرها الخارجى ، وكانت محتويات كل منها متساوية فى شفافيتها ولونهـــا المعدوم .

وبعد فترة قال « ابو نيل » فى دهشة لم يعرفوا ان كانت حقيقة او مفتعلة :

ـ ماذا تنتظرون ؟ .. كنت احسب انى سارى ستة منكم يعانون سـكرات الموت ...

لم تكن كلماته لتشجع السـبعة المرتجفين . ثم تقدم منهم اثنان ، هما اكثرهم شجاعة ، ومـــدا أيديهما الى منتصف الطريق نحو المنضدة . ولكنهما عندما ادركا ان الآخرين لم يقتدوا بهما ، عادا فســحبا يديهمـــا فى شىء من الارتباك .

واخيرا هتف احدهم محطما الصمت الحائر :

ـ لا تظن ايهـــا المعلم العظيم انى شخصيا احرص على حياتى التافهة .. ولكنى أرعى امى العجوز .. التى ترتبط حياتها بحياتى ...

وقال الثانى :

ـ وانا لى أخت غير متزوجة يجب على ان أعولها .

وقال الثالث :

وانا لى صديق حميم اخنى عليه الدهر .. وليس من الحكمة ان اتخلى عنه ...

وقال الرابع :

ـ اما انا فلى عـــدو وأود ان انتقم منه ....

وقال الخامس :

ـ لقد وهبت حياتى كلها للعلم .. فهل ارضى بتركها قبل ان تشمل ابحاثى البحار السبعة ؟

وتساءل السادس :

ـ وهل ارضى انا بترك الحياة قبل ان اتحدث الى الانسان الذى يعيش على سطح القمر ؟

واخيرا قال السابع :

ـ أما انا فليست لى ام او اخت .. وليس لى اصدقاء ولا اعداء . كذلك حماسى للعلم لا يوازى حماس زملائى.. ولكنى احترم جسـدى واعتز به كثيرا ...

فقال الحكيم مجملا قوله :

ـ اذن فالنتيجة النهائية انه لا احد منكم سـوف يخاطر فى سبيل كأس الخلود ؟

ظل الشبان صامتين فى خجل وارتباك، عازفين عن تلقى كلمات التقـريع من استاذهم ، وعاجزين عن تبرير مسلكهم. كانوا يتلمسون حلا وسطا لهذه المعضلة، ولكن الحل تلكأ فى الظهور . واخيرا قال احدهم :

ـ قد يكون من الاوفق ألا نجـرع القوارير دفعة واحدة ، بل يجرع كل منا قنينته على التوالى ، وليفعل القـدر بنا ما يشاء ..

فاجاب « ابونيل» :

ـ ليس لى اعتراض على هـذا الاقتراح .. فقط تذكروا ان اقـل محاولة لمخالفة الشروط بترجيح الفرصة لأى فرد منكم .. سوف تعنى فشلكم جميعا ..

واقترحوا اجـراء قرعة . فأسرع التلاميذ وتناولوا سبع قصبات غير متساوية فى الطول ، وشرعوا يسحبونها بالطريقة المعتادة ، فاسـتقرت أقصر العصى فى يد احدهم ، وهو الذى يتذرع بواجبه البنوى نحو امه ، فتقدم نحـو المنضدة فى كثير من العزم والتصميم، وامتدت يده الى منتصف الطريق دون تردد ، ثم التفت الى زميـله الذى يمسك بالعصا التالية فى الطول ، وكان هو الذى يقيم مع أخته ، وقال بسرعة:

ـ ان العـلاقة بين الام وابنها أقوى واقدس من الصلة بين الأخوة .. أليس من الواجب اذن ان تواجه انت هـذه المجازفة بدلا منى ؟

فاجاب الشاب المعنى بالحديث فى ايجـاز :

ـ ان العلاقة بين الأم العجوز وابنها البالغ ، ولو انها اكثر قداسة ، لا يمكن أن تكون دائمة ، اذا ما أدركنا انهـا ستنفصم عراها بالموت ، بينما العلاقة بين الأخ واخته قد تدوم الى سـنوات طويلة اذا شاءت ارادة الله .. لهـذا يجب أن تجـازف انت اولا بهـذه التجربة ..

فصاح المتحدث الأول فى سخط :

ـ هل وصلت بى الحال لأن اسمع مثل هذه السفسطة من تلميذ للحكيم « ابونيل » ؟ .. ان علاقة الأم بابنها ..

فصاح السادس مقاطعا :

ـ لنوقف هذه التفاهات لحظة .. فأما ان تنفذ الشروط او تتخلى عن هذه المهمة ..

تحمس التلميذ لهـذا الاستعجال ، فمد يده الى المنضدة وأمسك باحـدى القوارير ، وما كاد يلمسها حتى خيـل اليه انه اكتشف شيئا من الاختلاف فى لون السائل مما تشاءم له ، وتوهم انه يعكر صفو شفافيته فيميزه عن باقى القوارير ، فأسرع يعيده الى المنضدة . وامسك بالقارورة التالية . وفى تلك اللحظة انفجر وهج من الضوء أمامهم ، فسقط التلاميذ السبعة مصـعوقين ، وتمددوا على الأرض فاقـدى الوعى .

وعندما استعادوا قواهم ، وجـدوا أنفسهم خارج مسكن الحكيم «ابونيل»، متأثرين بالصدمة والاهانة التى لحقت بهم لما اقترفت أيديهم ، ثم تعاهـدوا جميعا على الاحتفاظ بسرهم ، وعادوا الى بيوتهم .

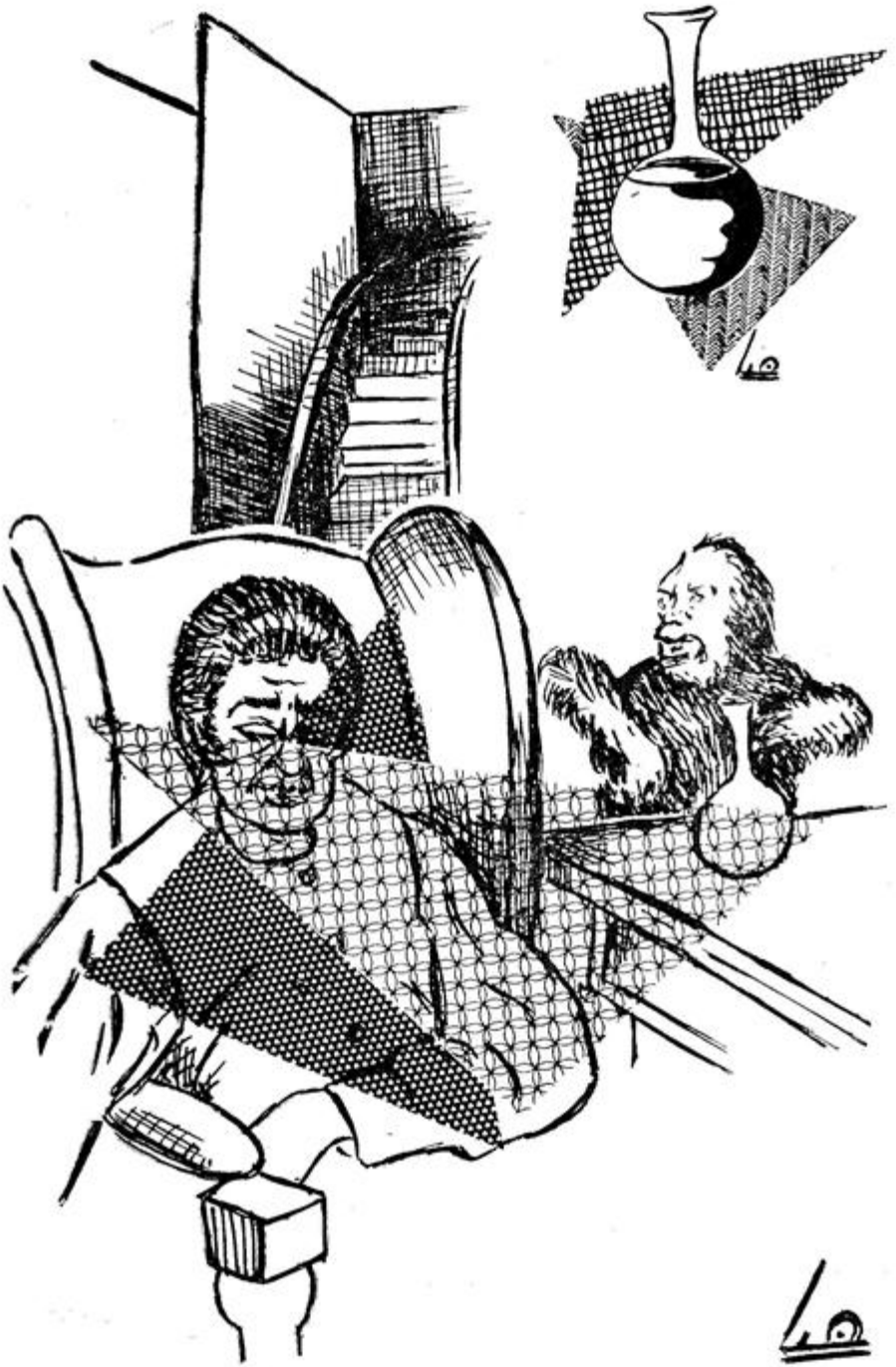

■ انطلق أمامهم قرد ضخم بفروة ناعمة ■